أفضلية محمد (*صلى الله عليه و سلم*)
في الموروث الشعري القديم

أ. د. أحمد موساوي

المركز الجامعي.النعامة

الجزائر

الملخص.

يختار الله الأنبياء والرسل نموذجا للكمال، ويشرفهم ويزينهم بأكمل الأوصاف ,لأنهم الهداة وأئمة الدين والدنيا ،فهم الصفوة وخيرة الخلق ،وما دام محمد **أفضلهم** و **أفضل** الناس و أقربهم إلى ربه، وقف الأدباء و الشعراء عند هذا النبي المفضل و خصوه بنصوص و قصائد شعرية مدحية تفاوتت في الطول والقصر, تباهوا فيها بنبوته ورسالته و هدايته للناس و تغنوا ب**أفضليته**،وتبليغه شرع ربه على أكمل وجه ،فدعوته أحيت القلوب التي قتلها الجهل بظلماته ،فأنعشها النبي و أزاح الحجب السوداء عنها.

Résumé.

Cet article vise la littérature classique arabe , surtout le cotè thématique ; ou on trouve le prophète Mohamed dans les poèmes choisis considéré comme le préféré d'Allah ,.les poètes

Descrivent et analysent cette supériorité et préférence en se basant sur le coran.

الكلمات المفتاحية:

مدحة نبوية. أفضلية. صفات. نبوة. شعر. نموذج. رسالة. شوق. محبة. أدب ديني. خصال محمدية.تفوق. شفاعة.

تحن النفس إلى من تحب وتشتاق إليه و"...**الشوق حركة النفس إلى تتميم ابتهاجها بتصور حضرة محبوبها, و هو من لوازم المحبة و ذاتياتها"**[1] ; كما يقول لسان الدين بن الخطيب في سفره الموسوم بروضة التعريف بالحب الشريف. وإن حديثنا في هذه الالتفاتة إلى **أفضلية** رسولنا الكريم, سندعمه بما ورد في المديح النبوي الذي يعد لونا من ألوان الأدب الديني, المتعلق بصاحب الدين ,وهو الرسول صلى الله عليه وسلم هادي الناس إلى الحق والنور ،حيث نجد هذا الفن القولي مشبعا بالقيم و المشاعر الدينية و مفعما بمفاهيم الدعوة الإسلامية ،وان العناصر المضمونية لهذا الفن لم تعرف تغيرا كبيرا بالمقارنة مع مدائح العرب, بل حافظت على تعداد خصال الشخصية, و أضافت السمات المحمدية

وفضائلها من وسيلة و مهابة و رحمة إضافة إلى التأكيد على ما يجب على المؤمن تجاه هذا النبي من احترام و حب و تقدير .

و كان كل شاعر مداح للرسول الكريم يميل إلى الاهتمام بجملة من الخصائص يرتبها بأسلوبه و منهجه الخاص ورؤيته في بناء هيكل مدحته و ترتيب عناصرها ،مثل الشاعر الجزائري القيسي حين يخلص إلى المدح النبوي بعد طلب الشفاعة بجاهه صلى الله عليه وسلم ،وترتكز فاتحة مديحه على **أفضلية النبي** على الخلق كلهم حينما تحمل أمانة رسالة الإسلام .

نبي رآه الله **أفضل** خلقـــــــــه * فأرسله بالحق للخلق هاديا
و أسرى به ليلا إلى حضرة العلا * فشاهد فيها كل ما كان خافيا
سرى راكبا ظهر البراق كرامـــة * وبين يديه سار جبريل ماشيا [2]

وهنا **الأفضلية** واضحة ،فالنبي **فريد متميز** بقربه من الله ،وما دعم ذلك معجزة الإسراء و المعراج التي لم يحظ بها بشر قبله ،وهذا **مقام** ما بعده **مقام** ،انه الرجل الكامل **المفضل** المختار من بين الخلق لحمل الرسالة ،وهذه الدرجة من القرب من الله في التصور الإسلامي لا يفوز بها إلا من كان نبيا أو تقيا نقيا من أ ولياء الله .[3]

إن الأنبياء يختارون نموذجا للكمال ،ويتشرفون بأكمل الأوصاف لأنهم أئمة الدين والدنيا ،فهم الصفوة وخيرة الخلق ،وما دام محمد **أفضلهم** و **أفضل** الناس و أقربهم إلى ربه، وقف الأدباء و العلماء و الشعراء عند هذا النبي المفضل متباهين بنبوته ورسالته و هدايته للناس ،وتبليغه شرع ربه على أكمل وجه ،فدعوته أحيت القلوب التي قتلها الجهل بظلماته ،فأنعشها النبي و أزاح الحجب السوداء عنها .

وان كل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم سيد الخلق هو عبادة لله وابتغاء مرضاته وطاعة لربه ،وتنفيذ لتعاليم الإسلام وكل ما كان منه عملا و سلوكا و جهادا ،وقولا وتعليما وقيادة و سياسة و إنصافا و أخوة ،كله من طاعة ربه و خشيته .[4]

فالنبي صلى الله عليه **مفضل** و **متفوق** على المستوى البشري و على المستوى النبوي ،وهذا ما جاء في القرآن الكريم ،أليس الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب **الوسيلة** و هي أعلى درجة في الجنة ."ذلك **فضل** الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم" [5] ،وكذلك قوله تعالى "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء **شهيدا**"[6] ،وفي الحديث النبوي الشريف أمثلة كثيرة على تلك الأفضلية و التفوق ،قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع "[7]

و من هذا المعين نهل عشاق الرسول الكريم :

فيا ليت شعري هل أراني بربعه * أقبل من آثاره ما أقابل
رسول كريم خاتم الرسل كلهم * و أعظم من تلقى إليه الرسائل
و أفضل مبعوث وأكرم شافع * تنال به يوم الحساب الوسائل
بدا فانجلى ليل الضلالة بالهدى * وزاح به ما زخرفته الأباطل

و عم جميع الخلق علما و حكمة * فلم يبق في عصر الجهالة جاهل [8]

فهذه الأبيات تفيض إعجابا واعترافا **بالتفوق** المحمدي على مستوى النبوة ،وتلك **الكمالات** النبوية تعد **قبسا نورانيا** من المقام الأعلى التقطها الشاعر لإثارة خيال المتلقي و تنشيط التأمل لديه وتحريك عواطفه و إلهاب مشاعره سعيا وراء الظفر بالقرب منه صلى الله عليه وسلم والفوز بشفاعته ،ونلمس أيضا في هذا المقطع تلك العناية الربانية التي انفرد بها محمد مما جعله أنموذجا وقدوة لجميع الناس ،أليس هو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه واتخذه صفيه وحبيبه وكان عمله يدل على مكنون باطنه وعبادته تعد لأخلاقه الكريمة و آدابه الربانية .[9]

و كم تغنى الصرصري بخصال محمد و أفضليته على كل الخلق.وقربه من عرش الرحمن و لكل ذلك علامات وإشارات .

علا قدره إذ كان من أمة الرضا أبي القاسم الشافي الصدور كلامه

محمد المختار أول مجتبى و آخر مبعوث حميد ختامه

أتاح له الرحمن إذ كتب اسمه على العرش فضلا منه عز مرامه

و فوق الجباه الزهر ما زال نوره يبوء به من كل حي وسامه .[10]

أليس هو صاحب العلم والحكمة وهو الهادي والكريم والخاتم والمفضل والشفيع ،فكلها صفات عددها أحباب النبي مستعينين بالمصدر القرآني و السيرة النبوية ،وينبني كل ذلك من خلال ثنائية تقابلية تكشف الماضي المظلم الضائع في الضلالة و ما جاء مع محمدا من هدى و إيمان ورفضا للجهالة وحبا للتنوير .

إنه أسلوب من الأساليب التي تكشف الصراع الدائر بين ماض بعيد موغل في الغواية, و الضلالة, و بين حاضر اتضحت فيه الرؤية بانقشاع الظلمة وشروق شمس الإيمان .

توسلت بالهاشمي الذي * بعثت رسولا فأدى الرسائل

نبي الهدى خاتم الأنبياء * شفيع العصاة و زين المحافل

عظيم الجلال كثير النوال * كريم الفعال و بالحق قائل

تخيره الله من أمة * تخيرها من جميع القبائل [11]

فقد خص الله نبيه بحمل الرسالة ،ومن ثم ارتبط محمد بخالقه برابطة سامية متميزة ،هذا النبي الشريف الأصل , السامي , الحامل لمشروع التغيير, بدعم من السماء و حفظ من الله تعالى "...حتى بلغ أن كان رجلا **أفضل** قومه مروءة و أحسنهم خلقا و أكرمهم حسبا و أحسنهم جوارا و أعظمهم حلما و أصدقهم حديثا و أعظمهم أمانة و أبعدهم من الفحش و الأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما ،حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ."[12]

و ما هو إلا سيد الرسل كلهم * و أولاهم بالفخر حيث يكون

و **أفضلهم** خلقا وخلقا و محتدا * وأكملهم ذاتا وذاك يقين

وأعلاهم قدرا وأرفع منصبا * وأسمح كفا إذ تجود يمين [13]

و منه أيضا قول جمال الدين بن ظهيره القرشي:

و أقرا السلام على خير الأنام و من أسري به و رفيق السير جبريل

و كلم الله جهرا بعد رؤيته و نال منه تعظيم و تبجيل

و أم بالأنبيا و الرسل قاطبة في محفل و ظلام الليل مسدول

الله أعطاه ما لم يعطه أحدا و كم له منه تكريم و تفضيل [14]

فمن خلال هذه الصفات نتلمس في كل قيل , الاعتماد على مبدأ المفاضلة بين الرسل حيث الافتخار بأن محمد هو **أفضلهم وأحسنهم** وأعلاهم قدرا ،وهنا يقدم الشعور للناس بتلقائية تكشف عميق و صدق التعلق بالنبي إلى درجة تفضيله على باقي الأنبياء ،أليس هو الذي أمهم في بيت المقدس و خصه الله بمعجزات لم يعرفها بقية الرسل و أليس الله هو الذي أوحى للشعراء بهذا **التفضيل** حينما قال في كتابه العزيز " تلك الرسل **فضلنا** بعضهم على بعض " [15]

و في هذا السياق ترك ابن زمرك مطولة نقتطف منها:

يا نعمة عظمت في الخلق منتها و رحمة تشمل الغادين و الروحا

الله أعطاك ما لم يؤته أحدا و الله أكرم من أعطى و من منحا

حبيبه مصطفاه مجتباه و في هذا بلاغ لمن حلاك ممتدحا

اثني عليك كتاب الله ممتدحا فأين يبلغ في علياك من مدحا [16]

و قد سبق **البوصيري** الكثيرين في هذا التفضيل حيث رأى محمد الأفضل و الأعلى مرتبة ،وقد غطى على جميع الأنبياء كالشمس التي غطت على الكواكب :

و كل آي أتى الرسل الكرام بها * فإنما اتصلت من نوره بهم

فانه شمس فضل هم كواكبها * يظهرن أنوارها للناس في الظلم

و نلتفت إلى شعراء كثر ولجوا هذا الباب و لم يترددوا في الوقوف عند أفضليته :

قصدت رسولا أكرم الخلق كلهم * و **أفضل** من **تثني** عليه المنابر

و سيد أهل الأرض و الكون كلهم * و أول من تنشق عنه المقابر

تقدم **فضلا** قبل كل مكون * وجاء لنصر الحق و الكفر جائر

آيا خاتم الإرسال و هو إمامها * وسيدها و الفضل في الكل باهر [17]

فهو المقصود والمفضل والكريم وسيد الأرض وإمام المرسلين ،وكل هذا يكشف عن صدق في حب النبي الكريم و إقرار بفضله على البشرية و خاصة حينما واجه بين الحاضر المشرق المتمثل في الحق ونصرته وبين الماضي المظلم حيث الكفر جائر ،و سر التفوق عند محمد وفعاليته الإنسانية تكمن في هذه القدرة على تغيير و تحويل الإنسانية من زمن الغواية والضلال إلى زمن الأمن والنور .

وقد استغل الأدباء والشعراء لتحقيق هذا المقصد كل ما اطلعوا عليه ولمسوه في القرآن الكريم والحديث الشريف و كتب السير و الأخبار واستطاعوا أن يقدموا أحسن الصور و ابلغها للمحبوب و شكلوا شخصيته شاعريا وقدموها نموذجا ومثالا للمسلمين فهو "...بطل كامل الأوصاف يقف شامخا في خيال الجماعة ووجدانها ،فكان أغنى الرموز الواسعة العملاقة ،اعني الملوك و الزعماء والقادة و أصحاب الرأي و الحكمة الذين اتجهت إليهم مدائح الشعراء ." [18]

و منه قول الشاعرالعاشق لنبي الرحمة :

رحم الإله العالمين ببعثه فيهم و فضل جنسه تفضيلا
بدعائه انقشع الغمام و قبلها والت بدعوته الغمام همولا
و الشمس قد ردت له ولطالما قد ظللته سحابها تظليلا
لم لا يطاوعه الوجود و قد غدا من نوره في خلقه معلولا
يا نكتة الأكوان ياعلم الهدى آيات فضلك رتلت ترتيلا
لولاك لم يكن للكيان حقيقة و لكان باب وجودها مقفولا [19]

فالكمال الذي بلغه كان نتيجة لانجذابه إلى عالم الربوبية و كثرة عكوفه و عبادته وتهجده وامتلاء حياته بالمعاني الروحية ،ونفور نفسه من الملذات الباطلة و السعادات الزائفة . [20]

لقد شرف الله النبي محمدا بما لا إليه للأنام سبيل
لمسراه أبواب السماوات فتحت و مولى تجلى والحديث يطول
له فضل كل الرسل و ازداد فضله فما شئتم عن فضل أحمد قولوا
لواء يظل المرسلين فتحته لعيسى و موسى و الخليل مقيل
لرب الورى رسل على الناس قد علوا وأحمد يعلوا فوقهم و يطول [21]

ونختم الحديث عن أفضلية محمد على باقي خلق الله من الجانب النبوي والبشري بهذه الأبيات الشعرية الرائقة لصاحبها التلاليسي :

نبي كريم شرف الله قدره * و فضله في القبل و البعد و الحال
نبي به سدنا على كل أمة * فلا أمة إلا لنا تحت إذلال
هو المصطفى ساد الأنام وقدره * على كل مخلوق نطقت به عالي
حليم رحيم مؤثر متفضل * رؤوف عطوف مانح دون تسئال
فمن رام أن يحصي أفضال احمد * فذلك شيء لا يمر على بالي [22]

فالمبالغات التي تصادف القارئ في نصوص المادحين للنبي و المعددين لفضائله التي فاقت مخلوقات الله ،هذه المبالغات لها مسوغاتها الشرعية و الوجدانية ،فالنص القرآني واضح فيما يتعلق بعظمة الخلق النبوي "و **انك لعلى خلق عظيم**" [23] ،كما أن الجانب الوجداني في شخصية المسلم تتكفل بتهذيبه محبة الله ورسوله وكذا باقي الرسل والأنبياء ،مما يجعل هذا الوجدان رقيقا قادرا على تمثل النموذج البشري الكامل في النبي محمد ،هذا النبي الذي من عليه ربه بمديح قرآني وثنى عليه محبوه من شعراء المديح .[24]

وهكذا **نخلص** إلى أن أخلاق النبي القرآنية هي التي **رفعته** فوق البشر وحققت له **شروط التفوق** و **الأفضلية** على المستوى الذاتي الأخلاقي وعلى المستوى الجماعي حيث الممارسة في الشخصية الداعية و التي تتمحور في نقطة الهداية الواصلة بينه وبين الناس و التي تحدد دوره كداع إلى الهداية والإصلاح و إلى مكارم الأخلاق. فهو الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم.

الهوامش:

(1) – روضة التعريف بالحب الشريف.ج2.لسان الدين بن الخطيب. تح.محمد الكتاني.دار الثقافة.الدار البيضاء .المغرب.ط1. 1980. ص :648.

(2) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص :190.

(3) – نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده.مصطفى عليان. دار البشير .عمان.ط1. 1992. ص :70.

(4) – الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري.علي علي صبح . المكتبة الأزهرية للتراث مصر .ط2. 1997.ص :36.

(5) –المائدة .54.

(6) –النساء.41.

(7) –صحيح مسلم.دار الآفاق الجديدة.بيروت.دط.دت. 59/7.

(8) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص :69

(9) –ينظر. الأدب الإسلامي الصوفي .علي علي صبح. المرجع السابق .ص :37.

(10)_ المجموعة النبهانية . يوسف النبهاني, ج4 ص: 48.

(11) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص :47–48.

(12) – السيرة النبوية. مجلد1.ج1.ابن هشام. دار الحديث القاهرة.ط2. 1998.ص :162.

(13) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص :216.

(14) – المجموعة النبهانية . يوسف النبهاني, ج3 ص:109

15_ البقرة .بآية 253.

16_ ازهارا لرياض . المقري ج2 ص.54

(17) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص :282–283.

(18) – فن المديح النبوي في العصر المملوكي .غازي شبيب. المرجع السابق.ص:71.

(19)– ازهارا لرياض . المقري ج2 ص: 99

(20) –ينظر. مدخل إلى التصوف الإسلامي.ابو الوفاء الغنيمي التفتازاني. دار الثقافة القاهرة.ط 3. 1988.ص :45.

(21)– ازهارا لرياض . المقري ج2 ص: 99.

(22) – بغية الرواد.يحي بن خلدون. المصدر السابق.ص : 140–141.

(23) –القلم آية 04.

(24) –ينظر. الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر. محمد بنعمارة. شركة النشر والتوزيع .الدار البيضاء المغرب.ط1. 2001.ص :114.